المضيف

يقول شتيوي : والله عالم ! ويتنهد وينفث حسرة طويلة وينظر نحو الشمس المتالقة كبيدر سماوي كبير ...

رائحه الخبز الساخن تفوح من التنور القريب وتتصاعد مع دخان لهبه فتتماوج مع كل هبه من هبات الريح الناعمة فتقوى وتضعف كلما غيرت الريح من اتجاهها وكانت رائحه الخبز ساحرة مخدرة اكثر من كونها مثيرة للشهية حتى ان « شتيوي » اغمض عينيه وظل يشمها ملء صدره وهو ساكن تماما ممدد الساقين على العشب البري الخشن متكئا بمرفقيه على الارض حيث كانت ترعى خراف محدودة ومواشيه وكان يتصور امامه مائدة عامرة بالاطعمة الشهية المختلفة تلك التي كان يهبها الجني الاسود لمن يملك الخاتم المسحور ...

وثنا فشيئا فتح شتيوي عينيه ونظر نحو الشمس فكانت لم تزل بعد في الجانب الشرقي وقدر انها قد تعبر سمت الراس بعد ان تصنع الحفارات تلا صغيرا اخر الى جانب الترعة التي تجري شقها من حصر التراب المنساب في كل يوم ، منذ كان شتيوي طفلا وحتى اصبح رجلا يبحث عن سبب الحلال الذي يرضى ان يقاسمه بقية العمر منذ ان كانت هذه الاراضي بوارا حتى اصبحت جنه ملأى باشجار التفاح والبرتقال . والارض تبدو انها تغير بعضهم من حال الى احسن .. مزارع خضراء وانهار حفروا كثيرا في شقها وسيارات شحن تحمل الثمار بين يوم واخر الى بلاد الله الواسعه . كل شيء يتغير الا شتيوي والاخرين يبدو كانهم لا يختلفون عن تلك المكائن الصدئة المخيفة التي اخذت تشق الان الترع الجديدة بدلا عنهم اولا يختلفون عن هذه الدواب التي تحلب في كل يوم ... ايه .. يقول شتيوي والله عالم .

ويتنهد وينفث حسرة طويلة وينظر نحو الشمس المتالقة كبيدر سماوي كبير .. اصبحت الشمس تزحف في كل يوم ولا ينتظر من وراء ذلك الا ان تعبر سمت الراس ليأتيه شعلان الاعضب حاملا اليه قليلا من التمر واللبن ورغيفا من خبز الشعير وفي احسن الاحوال « مرقة » تصنعها ام شعلان من اغصان الطلع . ولكن غيره الكثيرون ملوا مثل هذا الانتظار فهاجروا الى المدينة وكتبوا عرائض الى الوزارة وكانوا كلهم يلهجون باسم « الاصلاح الزراعي » فاعطيت لهم الاراضي فبقي هناك من بقي وعاد من عاد ...

وعادت رائحه الخبز الساخن تتغلغل في صدره حتى يبدو كانها تنتشر في كل الابعاد وفكر ان ينهض ليطلب رغيفا من حرمة « ذياب السلمة » التي كانت تلصق ارغفه الشعير السميكة بجدران التنور وهي تجعد عضلات وجهها وتنحني امام وهج النار ، ولكنه نكص عن ذلك وهو يتذكر ذياب وغلظة يده ... ملعون ذياب .. يشتغل عند الحكومه ويسكن في البيت الاجري الذي غالبا ما يجلب شتيوي دوابه بالقرب منه لترعى حوله وليتفرج هو على اعمال حفر الترعه الجديدة وعندما يدخل شتيوي الى ذلك البيت ليحمل بندقية مدير الناحيه وخراطيش الصيد ينظر ذياب نحوه ملؤها الحقد ثم يطرده بعد ذلك قائلا ان البيت ليس خان « جغان » بل دائره رسميه ، والبيت كما لاحظ شتيوي يبدو فعلا كدائرة رسمية اذ غالبا ما يحضر اليه مدير الناحية اثناء تجواله للصيد بل يبدو مهما بالتاكيد بسبب جهاز التلفون الاسود الذي يضعه ذياب على منضدة كبيرة امام الباب والذي يكلم منه ذياب بنفسه في كل يوم بعد ان يقرا مقياس ارتفاع الماء في الفرات ، وعلى هذا يخرج شتيوي حالما ينقل البندقيه والخراطيش من سيارة مدير الناحيه الى ذلك البيت ولقد اصبحت هذه عادة لن يتجاسر على انتهاكها بطلب رغيف خبز لا يغني ولا يسمن ثم ماذا سيصنع رغيف الخبز « العتيق » الذي لن تداويه الا وليمه من ولائم الجني الاسود خادم الخاتم المسحور.

ومن بعيد ، على الطريق الترابي المحاذي للنهر لاحت سياره مدير الناحيه تجري امام غيمة ترابيه كبيرة فنهض شتيوي على عادته متهيئا للاستقبال ومتناسيا رائحه الخبز التي احدثت سببت له الما في معدته ودوارا في راسه . وشيئا فشيئا اقتربت السيارة حتى توقفت امام البيت الاجري فزحفت الغيمة الترابيه وعبرت السياره ثم حركت اغصان شجره التوت القريبه من التنور والتي تظلل البيت الاجرى، في حين هرع شتيوي وتناول البندقيه والخراطيش من السائق وسلم على « الحاج » مدير الناحيه من غير ان يجرا فينظر في جهة ثم دخل بعد ذلك الى البيت الذي قسمه ذياب الى قسمين احدهما « للحكومه » والاخر للحرمة والاطفال ، فعلق في حائط الحجرة الخلفية البندقية والخراطيش وعاد فالتقى الحاج مدير الناحية يتحدث مع ذياب وهو يحك صلعته بتاني وهدوء . قال ذياب بلهجته البطيئة الغامضة كانه يحذر من افلات كلمة لا تناسب المقام :

ـ يا حاج ، اتصل القائمقام بالتلفون وقال انه سيحضر مع الجماعة الى هنا ليطلعوا على سير الحفر في المشروع الجديد .

وظل الحاج مدير الناحية يحك صلعته اللامعة الوردية بتان وهدوء ثم اجاب وهو يحرك شفتيه باقل ما يمكن من الجهد . وكان يبدو كانه يحدث نفسه :

ـ ها ... اهلا وسهلا .. اهلا وسهلا ..

وتحرك شتيوي نحو السيارة لينقل الطيور التي اصطادها الحاج فتناول من السائق ثلاثة طيور (طبن) و (دراجة) وكانت مذبوحة الرقاب فرفعها من ارجلها ورؤوسها تتارجح مدلاة ثم ادخلها الى البيت ووضعها الى جانب المنضدة الكبيرة في حين خطا الحاج مدير الناحيه متباطئا وتوقف عند الباب ثم نادى بصوت واهن :

ـ رئيس عرفاء ... تعال هنا .

في الحال تحرك شرطي يحمل ثلاثة خيوط الا ان الجميع اعتادوا على تسميته رئيس عرفاء لسبب لا يعرفه احد وكان قصير القامة ، سمين جدا ، احمر الوجه حليقه دائما . وكان يلف اسفل بنطاله بلفاف طويل يكاد يصل حتى الركبة وله عينان تشع منهما دائما نظرة متحفزة مخيفة حتى عندما يتكلم مع مدير الناحية . اسرع رئيس العرفاء نحو الحاج وتوقف عند الباب وهو يحني راسه ويخفي عصاه الغليظة ذات الذنب خلف ظهره تادبا واحتراما مصغيا الى ما سيقوله الحاج مدير الناحية . مسح الحاج بحكم العادة صلعته اللامعة بباطن كفه وابتسم وهو يقول :

ـ رئيس عرفاء .. سيزورنا القائمقام فاين سيدبر لنا (عنجلية) اليوم .. رايك بجاسم البطي ؟

وحال ان سمع شتيوي بكلمة (العنجلية) ينطقها الحاج عادت الى انفه رائحة الخبز وعادت الى ذهنه صورة الوليمة التي يهبها الجني الاسود خادم الخاتم المسحور . اجاب الشرطي رئيس العرفاء :

ـ امرك سيدي .. دائما يتمنى جاسم البطي زيارتكم .

ضحك الحاج ضحكة قصيرة واعقب محتفظا بشفتيه ساكنتين :

ـ هذا وقته الان .. توكل على الله .

اجاب الشرطي ـ (نعم) ووجهه يحتفظ بامارات الجد والخطوره ثم اشار الى شتيوي بحركه سريعه من يده ان يقترب منه فامسك به من كمه وهمس له في اذنه :

ـ اريدك مثل الطير تذهب الى بستان التفاح وتاتيني بسعد .

وسعد كما يعرفه شتيوي وكما يعرفه الجميع هو حصان ابيض جميل يعتز به رئيس العرفاء اعتزازا كبيرا وهو يسرح دائما في بستان النخل عندما يكون رئيس العرفاء في معية مدير الناحية اثناء تجواله ، ولقد سمن كثيرا في المدةالاخيرة حتى ان رئيس العرفاء يشعر بالحزن لذلك ويفكر ان يقصر غذاءه على الشعير فقط .

وقال شتيوي :

ـ حاضر ... رئيس العرفاء .

وانطلق على السده الترابيه الموازيه للفرات ورائحه النهر تمتزج ببقايا رائحه الخبز التي كانت تسبب له الدوار في الراس والالم في المعده . ولم يدم انتظار رئيس العرفاء طويلا اذ لمح شتيوي وهو يخب على المحروس سعد عائدا وعلى وجهه تبدو علائم فرحة غامضة فتناول منه شكيمة الحصان واعتلاه بتثاقل وحذر ثم مضى معه والحوافر ترسم على الارض الترابية اثارا عميقة واضحة .

قال شتيوي وهو يعود الى دوابه التي ابتعدت كثيرا عن مرعاها حتى كادت تصل مكائن الحفر : هذا يومك يا شتيوي .. اضرب بالخمسة حتى تعوض عن كل الايام الماضية والتالية .

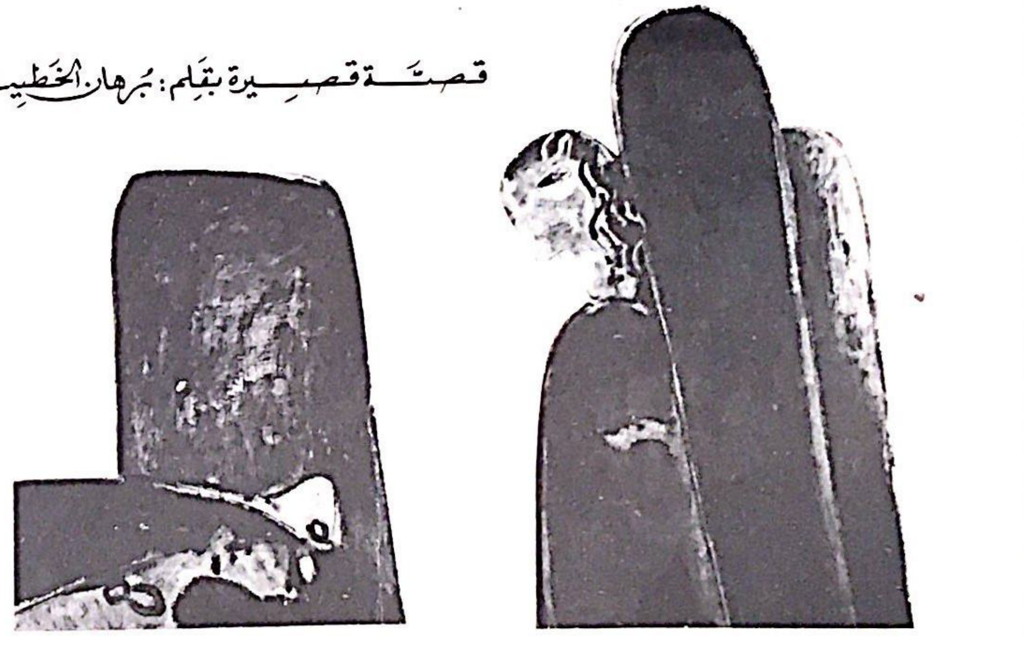

قصة قصيرة بقلم: برهان الخطيب

وجرى نحو الدواب فاعادها الى الارض المعشوشبة المحيطة ببيت الحكومه ثم افترش الارض من جديد في ظل شجره التوت الضخمه غارقا مره اخرى في احلامه مع الجني الاسود الذي يهب الولائم لمن يملك الخاتم المسحور ، منتظرا مجيء الشرطي رئيس العرفاء الذي سيحمل بالتاكيد نبا الوليمه الحقيقيه .

وصاح الحاج مدير الناحيه وهو يقف عند حافة الظل قرب الباب :

ـ شتيوي .. لماذا لم تجلب الكرسي ؟

قفز شتيوي وهو يتذكر الكرسي الاخضر الذي يحمله مدير الناحيه معه مطويا في السياره اينما يذهب فهرع نحوها واخرجه من المقعد الخلفي ثم فتحه وابتسم وهو يقدمه للحاج محاولا ان يضعه في مكان مناسب لجلوسه فقال الحاج ملاطفا شتيوي :

ـ تشكر صبي ... سناخذك اليوم الى قلعه جاسم البطي .. تستطيع ان تاكل لاسبوع مقدما . ماذا تقول ؟

اجاب شتيوي بارتباك :

ـ انعم الله .. حاج .. انعم الله .

وفي نور الشمس الباهر عبر الباب ظهر الشرطي رئيس العرفاء وهو يترجل عن الحصان بصعوبة ويتقدم منهما وعلى وجهه نفس امارات الجد والخطورة وفي عينيه تلك النظرة العدوانيه المتحفزة .

قال وهو يمسح العرق المتصبب من جبهته بسبابة يده اليمنى :

ـ يا حاج .. ارسل جاسم البطي معي رجلا ليدعوكم (رسميا) للغداء .

وظهر عند الباب اعرابي يرتدي دشداشة زرقاء وكوفية تغطي راسه وجزء من وجهه فابتسم متخوفا حال رؤيته مدير الناحيه وقال بلهجة مترددة :

ـ يا حاج ! شيخ جاسم يدعوكم .. انتم وعمال الحفر للغداء عنده هذا اليوم .

اجاب الحاج مدير الناحية وكانه لا يعلم من امر الدعوة شيئا :

ـ بسيطه .. بسيطه . سناتي بعد اذان الظهر بساعة او اكثر قليلا .

اضاف الاعرابي :

ـ اهلا ومرحبا .

ثم انسحب الى الخارج وذهب حيث كانت الحفارات والمدرجات تعمل في شق الترعة الجديدة بين سحب التراب المتصاعدة وفوضى العمال الغادين والرائحين وضوء الشمس النحاسي الساطع يشوي الوجوه ويستبيح كل الخفايا . توقف الاعرابي هناك وصاح امام العمال :

ـ يا جماعه .. اليوم كلكم مدعوون الى وليمه الشيخ جاسم في القلعة .

وشعر شتيوي وهو يسمع الاعرابي يشيع نبا الوليمة بحزن غامض وبكره لم يعرف له سببا لذلك البليد الذي فوت عليه فرصة حضور الوليمة لوحده مع مدير الناحية .

وخرج شتيوي من بيت الحكومة الى مكانه تحت شجرة التوت واضطجع على الارض المعشوشبه في انتظار حضور القائمقام وبدء الوليمه . وكانت الشمس تكاد تكون عمودية فهيا الحاج مدير الناحية للصلاة في الغرفة الخلفيه حيث علق الى الجدار بندقية الصيد والخراطيش .

وبدا عمال الحفر والسائقون المنهمكون في شق الترعه الجديدة ، بدأوا في التفكير بما سيقدم لهم في الوليمة حتى تحولت الوليمه بازدياد التفكير فيها الى (عقبة) كان من الضروري اجتيازها لمواصلة العمل بصفاء ذهن وبلا قلق .

وظل شتيوي لا يدري لماذا ... يقارن نفسه تارة بالدواب التي تحلب في كل يوم ، ويتطلع تارة اخرى الى عمال الحفر . ثم يعود الى التفكير في الوليمه المرتقبة حتى ظهرت سيارة القائمقام تتهادى على السدة الترابية المجاورة للنهر .

البقية في العدد القادم

رسوم "لارض البرتقال الحزين"

من مجموعة رسوم المجلد الثاني للآثار الكاملة للشهيد غسان كنفاني
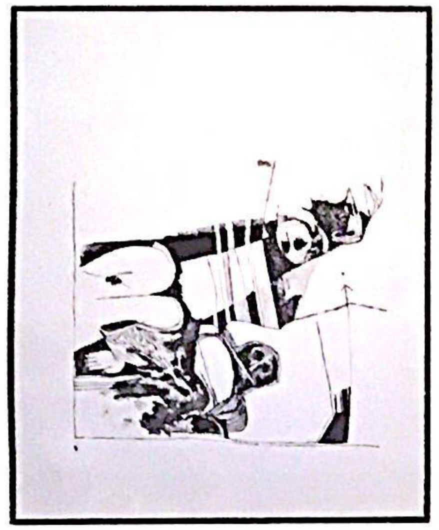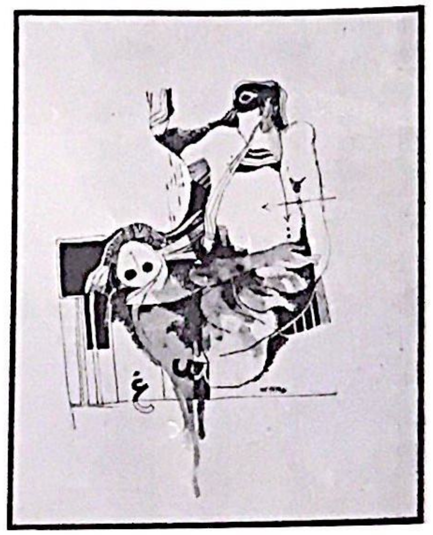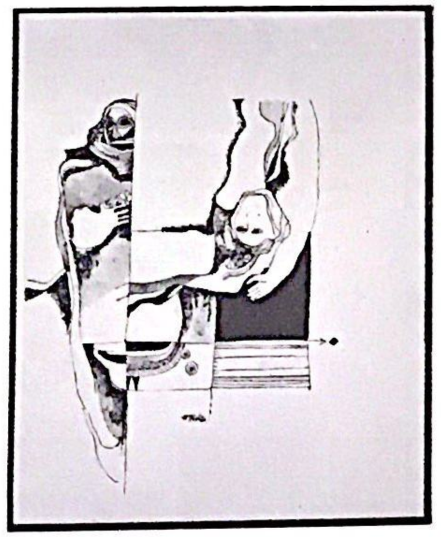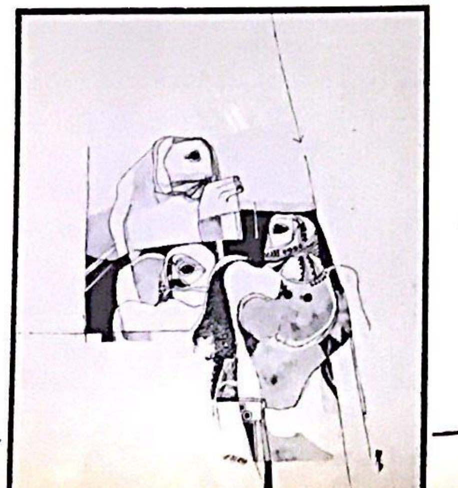
للفنان ضياء العزاوي